مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (30) العدد (2)2008
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (30) No. (2) 2008

مفهوم الرّدة وموضوعات ما قيل فيها من شعر

الدكتور عدنان محمد أحمد*

(تاريخ الإيداع 12 / 12 / 2007. قبل للنشر في 25 / 5 / 2008)

□ الملخّص □

يسعى هذا البحث لمحاورة مفهوم الرّدة الذي تقدمة المصادر التاريخية، وهو في محاورته لا يستند إلى المعطيات التاريخية بقدر ما يعتمد على الشعر بصفته "بنية معرفية□ □بالإضافة إلى ك□□ه –في الوقت ذاته– بنية لغوية جمالية.

وهو –أعني البحث– يبدأ بالحديث عن الرّدة في التاريخ، لينصرف بعد ذلك إلى الوقوف عند ما قيل من شعر في هذه الرّدة ؛ فيقف على أنواعه وموضوعاته، ثم يسعى للكشف عن سماته الفنية، قبل أن يخلص إلى خاتمة يبيّن من خلالها ما إذا كان هذا الشعر ينسجم مع مفهوم الرّدة كما تقدمه المصادر التاريخية، أو يختلف معه، في قليل أو كثير.

الكلمات المفتاحية: الرّدّة، شعر.

* أستاذ – قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين –اللاذقية –سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (30) العدد (2)2008
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (30) No. (2) 2008

Apostasy Concept and the Subject-Matters of the Poetry Said about It

Dr. Adnan Ahmad *

(Received 12 / 12 / 2007. Accepted 25 / 5 / 2008)

□ ABSTRACT □

This paper attempts to discuss the concept of APOSTASY as presented in the historical sources. It does rely on the historical resources, but it mainly depends on poetry as an epistemological structure and, at the same time, a linguistic, aesthetic structure. This research starts by talking about APOSTASY in history, and then it moves to highlight the poetry said about it, through analyzing its different types and various issues, then endeavors to uncover its artistic characteristics, before it reaches the conclusion on whether this poetry copes with, or somehow differs from APOSTASY Concept as manifested in the historical sources.

Keywords: APOSTASY, Poetry.

*Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدمة:

نعني بـ "شعر الرّدّة" الشعر الذي أنتجته الحركات التي انتشرت بين القبائل، في شبه الجزيرة العربية، غداة وفاة الرسول(ص)، ومع يقيننا بأنّ تلك الحركات لم تكن جميعها "ردّة"، بل كان بعضها اعتراضا على الخلافة، أو تمردا عليها، فإنّ مصطلح الرّدة[1]، في التاريخ الإسلامي، يطلق عليها جميعا، كما أنّ دارسي الأدب يسمّون الشعر الذي أنتجته "شعر الرّدة".

ولم يهتم القدماء بجمع هذا الشعر وجعله في "ديوان"، أو في "مجموع شعري" فظلّت أبياته، ومقطوعاته، وقصائده، متناثرة في بطون المصادر التاريخية والأدبية، وقد ضاع بعض تلك المصادر، فضاع معها، بلا ريب، بعض ذلك الشعر. غير أنّ المصادر التي كُتب لها البقاء، احتفظت لنا بقدر طيب من ذلك الشعر، جمعه أحد الدارسين المحدثين[2] بمجموع أسماه "ديوان الرّدّة" فكانت له بذلك يد بيضاء على المهتمين بدراسة هذا الشعر، إذ كفاهم مؤونة البحث عنه في مظانّه المختلفة، التي قد لا يكون الوصول إلى بعضها هيّنا، ولا يسيرا.

وقد رأيت أنْ اعتمد، إلا قليلا، على هذا الديوان في هذه الدراسة، تسهيلا للقارئ الذي يرغب في العودة إلى تلك الأشعار، وإنْ كان لابدّ من الإشارة إلى أنّ جامع الديوان قد جمع أشعار الرّدة في ضوء مصطلح الرّدة في التاريخ الإسلامي، وهو مصطلح يتضمن قناعة بأنّ جميع قبائل شبه الجزيرة العربية، كانت قد أعلنت إسلامها قبيل انتقال الرسول(ص) إلى الرفيق الأعلى، وأنّ السلطة الإسلامية كانت قد امتدت لتشمل جميع أنحاء الجزيرة العربية.

ولأنّ هذه القناعة تفتقر إلى معطيات تاريخية تدعمها وتساندها، فإن بعض الشعر الذي يتضمّنه الديوان، لا يعدّ– عند التدقيق– من شعر الرّدة، بل هو من شعر الفتوح، إذ إن المعارك التي أنتجته– وقد دارت في الشمال – كانت فتوحا، ولذلك لم ندخله في إطار هذه الدراسة. كما أنّ جامع الديوان قد أدخل في شعر الرّدة معظم ما قاله متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك، مع أنّ هذا الرثاء لا يمكن أنْ يكون قد قيل كله في الرّدة، وإنْ كان قد قيل بسبب حدث من أحداثها. كما أنه– أعني جامع الديوان– قد ضمّن عمله كلّ ما ذكره الرواة من شعر – عند حديثهم عن الرّدة – من غير تدقيق أو تمحيص، ومن غير محاولة للتثبت من صحة الأحداث التي يعبّر عنها الشعر، مع أنّ بعض تلك الأحداث أقرب إلى الأسطورة منها إلى التاريخ[3].

ولكي يكون المقصود بـ"الرّدة" واضحا، لا بدّ من التمييز بين الحركات التي لم تكن ردّة، والأخرى التي كانت ردّة عن الإسلام، ومحاولةً للانسلاخ عنه، والتنصّل من الالتزام الواجب نحو السلطة الإسلامية المركزية، وهذا يتطلب إلمامة، ولو سريعة، بمدى ارتباط القبائل العربية بالإسلام، وبعاصمة الدولة الإسلامية الناشئة، في تلك المرحلة، وفي سبيل ذلك لامناص من عودة إلى التاريخ، نجعلها تمهيدا بين يدي الدراسة.

الرّدّة في التاريخ:

---

[1] – يطلق مصطلح الرّدة عادة على الحركات التي انتشرت بين القبائل العربية غداة وفاة الرسول **للتنصل من التزاماتها السابقة مع المدينة**. انظر: إلياس شوفاني. *حروب الرّدة*(بيروت: دار الكنوز الأدبية، 1977) 101.

[2] – الدكتور *علي العتوم، ديوان الرّدة جمع وتحقيق وشرح* (عمان:مكتبة الرسالة الحديثة، ط1، 1987)

[3] – انظر ديوان الرّدة: 219، وانظر البيتين، والحادثة التي قيلا في محمد بن جرير الطبري. *تاريخ الأمم والملوك*(بيروت: ط2، 1976) 311/3.

يروى الطبري، عن طريق سيف بن عمر الضبي[4]، أنه "لما قَصَلَ أسامة كفرت الأرض وتضرّمت، وارتدت العرب من كل قبيلة عامة أو خاصة، إلا قريشا وثقيفا"[5] . ويقول الواقدي في كتابه "الرّدة" :"... ارتدت العرب على أعقابها كفّارا فمنهم من ارتد وادعى النبوة، ومنهم من ارتد ومنع الزكاة"[6]وهذان المؤرخان يرسمان صورة قاتمة لوضع الجزيرة العربية عشيّة وفاة الرسول(ص)! ويسهمان في تحديد مصطلح "الرّدة"، لكن مؤرخين آخرين كانوا أكثر دقّة ووضوحاً عند حديثهم عن هذه الحركة؛ فالبلاذري يقول: "لما استخلف أبو بكر ارتدت طوائف من العرب ومنعت الصدقة، وقال قوم منهم نقيم الصلاة ولا نؤدي الزكاة"[7] فهو يحدد الرّدة بمنع الصدقة. ويقول اليعقوبي: "وتنبأ جماعة من العرب، وارتد جماعة، ووضعوا التيجان على رؤوسهم، وامتنع قوم من دفع الزكاة إلى أبي بكر"[8]، فهو يفرّق بين المتنبئين والمرتدين، والذين ظلوا على إسلامهم ولكنهم امتنعوا عن دفع الزكاة.

والتاريخ نفسه يحدثنا بأنّ الأسود العنسي(عبهلة بن كعب) في اليمن، ومسلمة بن حبيب الحنفي في اليمامة، وطليحة بن خويلد في أسد، أعلنوا العداء للرسول(ص) ودعوته، ولحلفائه، في حياته[9]. وهذا يعني أن سلطة الرّسول(ص) لم تكن تمتد لتشمل المناطق التي نشط فيها هؤلاء، ولذلك فإنّ ما جرى فيها لا يجوز أنْ يعدّ انسلاخا عن الدولة الإسلامية، أو تنصلا من التزامات تجاهها، مما يعني أن مصطلح الرّدة لا يشملها. ثم إنّ المصادر "لا تتعرض لمسألة الصدقة بالنسبة إلى بني حنيفة، ويبدو أنّ قتالهم كان حربا لإخضاعهم لسلطة المدينة للمرة الأولى، وليس بسبب انتهاكهم اتفاقا، أو تمردهم على سلطة، أو حجب صدقة"[10].

وما جرى في الشمال يدخل في الفتوح وليس في الرّدة، وليس في ما يرويه ابن هشام عن ابن إسحاق ما يشير إلى أن الشمال كان بين المناطق التي أوفد إليها الرسول(ص) عمالا لجباية الصدقة[11]، إلاّ أنّ الطبري، ومن أخذ عنه، يوردون أخبارا بالاستناد إلى سيف بن عمر تفيد بقيام ردّة، ورواية سيف هذه نموذج لعدم دقته، كما أنها يناقض بعضها بعضا[12].

وهذا يعني أنّ الرّدة، بمعنى التنصّل من الالتزام الذي تم الاتفاق عليه مع المدينة، كانت محصورة في بعض القبائل المقيمة في الشمال الشرقي من المدينة، مثل غطفان، وتميم، ويؤيد هذا الاستنتاج أنّ الوفود التي أقبلت إلى المدينة، لعقد اتفاق مع أبي بكر يعفوها بموجبه من أداء الزكاة، كانت من نجد وحدها[13]. أما بالنسبة إلى الأماكن الأخرى فالمسألة غامضة، والمؤرخون قد يسمّون مترددين قبائل هذه الأماكن "مرتدة"، "فابن الأثير يعالج ظهور الأسود العنسي بمعزل عن بقيّة حركات الرّدة، ولا يسمي حركته ردّة، والبلاذري يجعل حركة الأسود رّدة، ولكنه لا

---

[4] – هو سيف بن عمر الضبي الأسدي التميمي، من أصحاب السير . كوفي الأصل، اشتهر وتوفي في بغداد في سنة 200 من كتبه: "الجمل" و"الفتوح الكبير" و"الرّدة"(معجم الأعلام:.3/ 150).

[5] – تاريخ الطبري: 3/ 242

[6] – محمد بن عمر الواقدي. *كتاب الرّدة* (باريس: المؤسسة العالمية للنشر، 1989) 30.

[7] – أحمد بن يحيى البلاذري. *فتوح البلدان*(بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000) 63.

[8] – أحمد بن يعقوب. *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1980) 2/ 128.

[9] – انظر تاريخ الطبري: 3/ 147، و 184 وما بعدها. وتاريخ اليعقوبي: 130/2.

[10] – حروب الرّدة: 114.

[11] – انظر محمد عبد الملك بن هشام. *السيرة النبوية*. قراءة وضبط وشرح محمد نبيل طريفي(بيروت: دار صادر، ط1، 2003) 161/4.

[12] –حروب الرّدة: 125، 126.

[13] – انظر تاريخ الطبري: 3/ 245.

يقول صراحة إنّ الأسود ارتدّ، وعنوان الفصل الذي يتحدث فيه عن حركة الأسود: "أمر الأسود العنسي ومن ارتد معه في اليمن"، إلا أنّ البلاذري لا يذكر اسما واحدا ممن أسلموا ثم ارتدوا. كما أنه–أعني البلاذري– لايتحدث عن مسيلمة في أثناء حديثه عن الرّدة، بل بمعزل عنها . أما ابن الأثير فيجعل بني حنيفة ومسيلمة في القبائل المرتدة. إضافة إلى أن أخبار سيف بن عمر تدين كل من شارك في الحرب في الجزيرة ضدّ المدينة بالرّدة"[14].

ويمكن القول: إنّ إطلاق مصطلح الرّدة – بمعنى الارتداد عن الدين، أو محاولة التنصل من الالتزامات – على جميع الحركات التي قامت بعد انتقال الرسول(ص) إلى الرفيق الأعلى، فضفاض جدا، وغير دقيق، والأقرب إلى الدقة "أنّ بعض القبائل انحازت إلى المدينة سياسيا، في حين عدّ بعضهم الزكاة إذلالا، وخضع لسلطة المدينة على كره منه، وآخرون لم ينحازوا إلى المدينة سياسيا، ولا دينيا"[15]. ويرى أحد الباحثين[16] أن العرب الذين حاربهم أبو بكر، وسموا مرتدين، لم يرتدوا عن الإسلام، كما يتبادر إلى الذهن، من تسميتهم، وإنما كانوا فريقين:

1– فريقا منع الزكاة فقط، زاعما أنها إتاوة تدفع إلى الرسول، فلما انتقل إلى جوار ربه أصبحوا في حلّ من دفعها إلى خليفته. وفي شأن هذا الفريق عارض عمر أبا بكر في حربهم.

2– أما الفريق الثاني فقد ارتدوا عن الإسلام، ولم يكونوا مسلمين حقا، لأنّ السواد الأعظم منهم كان من هؤلاء الأعراب الذين مردوا على النفاق، ولم يمضِ من الزمن ما يكفي لأنْ يؤثر الدين في قلوبهم.

ومع ذلك فإنّ مصطلح الرّدة، كما ذكرنا من قبل، يطلق على الحركات التي قامت بها جميع تلك القبائل في أول خلافة أبي بكر. والمرجح أنّ اعتماد المصطلح بهذا المعنى كان محاولة لإضفاء الشرعية على ما تسببت به حروب الرّدة من إراقة دماء، كان أصحابها يشهدون أنْ "لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله" وكان من المفترض أنْ تكون شهادتهم هذه عاصما لدمائهم من إراقتها بحدّ سيوف المسلمين. فلقد اختُلف حول شرعية تلك الحروب منذ اللحظة الأولى؛ إذ قال المهاجرون والأنصار لأبي بكر، عندما عزم على قتال المرتدين: "أوَ ليس قد قال النبي عليه السلام: أُمرت أنْ أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها حقنوا بها دماءهم وأموالهم؟" فقال أبو بكر: إنّ فيها "إلا بحقها"[17].

شعر الرّدة:

كان من المفترض أنْ يسعفنا شعر الرّدة في الكشف عن بعض الملابسات التاريخية بشأن بعض الأحداث، أو أنْ يكشف لنا بدقة، أكثر من التاريخ، عن مشاعر الناس، ومواقفهم مما جرى. ولكن المقدار الذي احتفظت لنا به المصادر لا يكاد يشفي غليلا، وإنْ كان يمكن أنْ يعطي فكرة مقبولة عما شهدته الجزيرة العربية، في تلك المرحلة من التاريخ.

---

[14] – حروب الرّدة: 134.

[15] – عبد العزيز الدوري. *مقدمة في تاريخ صدر الإسلام* (بيروت: 1960) 42، 43.

[16] – حسن إبراهيم حسن. *تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي*(القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1964) 351.

[17] – عمرو بن بحر الجاحظ. *العثمانية* . تحقيق عبد السلام هارون(القاهرة: دار الكتاب العربي، 1955) 81. وفي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب هو الذي تساءل معترضا، انظر تاريخ الخميس: 2/ 201، والفرق بين الفرق"ذيل كتاب شرح المواقف للكرماني": ص4. وفي الملل والنحل: "فقال قوم: لا نقاتلهم قتال الكفرة، وقال قوم: بل نقاتلهم؛ حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: لو منعوني عقالا مما أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه" انظر محمد بن عبد الكريم الشهرستاني. *الملل والنحل* (القاهرة: مكتبة الأنجلومصرية، بلا تاريخ) 31.

وقد يكون للضياع أثره في ذلك، إذ إنّ الرّدة كانت حدثا تاريخيا، في المقام الأول، فكان المؤرخون هم الأكثر اهتماما بها، وهؤلاء ينصرفون باهتمامهم إلى الواقعة التاريخية، وينشغلون بها عما سواها، فلا يهتمون بما أنتجته من شعر، إلا قليلاً، وهم عندئذ يهتمون بموضع الشاهد منه.

ويمكن أنْ نجد قدرا أكبر من الشعر في كتب تراجم الصحابة، ولكن أصحاب تلك الكتب لم يجعلوا جمع أشعار الصحابة من غايات مؤلفاتهم، فكانوا يكتفون بالإشارة إلى بعض تلك الأشعار، أو بذكر بعض الأبيات التي قالها الصحابي الذي يترجمون له، ولذلك تطالعنا في كتبهم عبارات مثل: كتب أبياتا منها...[18]، أو أنشد أبياتا منها...[19]، أو غير ذلك مما يوحي بأنّ الأبيات المذكورة بعض ما قاله الشاعر، وليست كل ما قاله، ولكن المصادر الأخرى لا تسعفنا في الوقوف على بقيّة الأبيات.

وإذا كان للضياع أثره في قلة شعر الرّدة، فإنّ "للتضييع" أثره أيضا. فلقد كانت الرّدة عاراً على المرتدين، بعدما انتهت الأحداث، والتأم الصدع، وانطوى الجميع تحت راية الدولة الإسلامية، فلم يكن من مصلحة هؤلاء أنْ يتناشد الناس ما قالوه، أو ما قيل فيهم، من شعر يتعلق بردّتهم، فعملوا على طمس ما استطاعوا طمسه من ذلك الشعر، وربما نسبوا بعضه إلى غيرهم، إنْ استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ونسبوا إلى أنفسهم ما يفخرون به. ولم يرغب أصحاب كتب تراجم الصحابة في ذكر شعر قد يعدّ عاراً على الصحابي، فاختصروا في ذلك ما وسعهم الاختصار، وربما حذا المؤرخون حذوهم لاعتبارات كثيرة.

أنواع الشعر وموضوعاته:

1- قصيد ورجز:

يمكن أن نجمع المنظومات التي قيلت في ما عرف باسم حروب الرّدة، في نوعين كبيرين من حيث الشكل الفني، هما القصيد والرجز، وفصل الرجز عن القصيد إنما هو لمخالفته للشعر في شكله العام ولاقتصاره على أبواب معينة، وموضوعات بذاتها[20]. وكان من المتوقع، ونحن نتتبع شعر الرّدة، أنْ نقف على قدر طيّب من الرجز، كما هي الحال عند تتبع الأشعار التي تقال في المعارك، إذ إنّ الرجز أقرب إلى السليقة، وأسهل نظما من الشعر، كما أنه "كان كثير الدوران في حداء العرب من قديم، وفي مبارزة الأقران في الحروب، فكان طبيعيا أنْ يكثر جريانه على ألسنة الجنود المحاربين في مقطوعاتهم القصيرة، وهو، من دون ريب، يؤكد السمة الشعبية لهذه المقطوعات لسهولة لغتها ويسرها"[21]، ولكن ما يثير الاستغراب أنّ مقطوعات الرجز التي خلفتها حروب الرّدة، أو التي احتفظت بها المصادر، والتي قالها الطرفان المتحاربان، لم تكن كثيرة بالقياس إلى الشعر. وهي مقطوعات قصيرة موجزة، كما هي العادة في الرجز الذي يقال في المعارك، تناول فيها قائلوها الموضوعات نفسها التي تناولها

[18] – انظر أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. *الإصابة في تمييز الصحابة* (بيروت: دار صادر، بلا تاريخ) 490/3.

[19] – السابق: 2/ 388. و 3/ 674.

[20] – شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: 238.

[21] – الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور: 33.

الشعر؛ فالمسلمون افتخروا بثباتهم على إسلامهم، وبجهادهم، كما افتخروا بأنفسهم وهم ميدان القتال، كما نجد في قول حريث بن زيد الخيل، وكان قد شهد حروب الرّدة مع خالد، فقال[22]:

أنـا حُريـثٌ وابـنُ زَيْـدِ الخَيـلِ ولَسْـتُ بـالنّكْسِ ولا الزُّمَّيْـلِ

وكما نجد في قول خالد بن الوليد وهو يهدد المرتدين، ويعبر عن استعداده لقتالهم، وعن ثقته بدينه[23]:

إنَّ السِّـهامَ بـالرَّدَى مُفَوَّقَـهْ والحـربُ وَرْهـاءُ العِقـالِ مُطْلَقَـهْ
وخالـدٌ مِـنْ دِيْنِـهِ علـى ثِقَـهْ لا ذَهَـبٌ يُنْجِـيكُمُ ولا رِقَـهْ

وبعض المقاتلين المسلمين أشاروا إلى ما أصابهم من أذى وهم في ساحات الجهاد، وهو أذى يحتسبونه عند الله سبحانه، ولذلك فهم يعبرون بذكره عن إيمان عميق بالله، وعن رضا بما أصابهم في سبيله. وهذا أحد المسلمين قطعت يده في قتال أهل الرّدة من بني حنيفة فقال[24]:

كيـفَ ترانـي وأَخِـي عُطـارِدا نَـذُودُ مـن حنيفـةَ المـداودا
أَنْشُـدُ كَفّـاً ذَهَبَـتْ وسَـاعِدا أَنْشُـدُها ولا أَرانِـي واجِـدا

وكذلك افتخر المرتدون بمواقفهم، وبقتالهم، ولكن ومن الطريف أنّ بعضهم عبّر عن خيبته من تصديق المتنبئين، ولاسيما سجاح، التي ادّعت النبوة، ثم لم تلبث أنْ تنازلت عنها لمسيلمة عندما تزوجها، فأثار موقفها سخرية بعض من آمنوا بها، ومنهم هذا الذي قال[25]:

عَصَـتْ سِـجاحٌ شَـبَثاً وقَيْسـا وَلَقِيَـتْ مـن النِّكـاحِ وَيْسـا

قد حِيْسَ هذا الدِّينُ عندي حَيْسا

2- موضوعات الشعر:

رافق الشعر أحداث الرّدة وصوّر أبرز ما جرى فيها، ابتداء بالمواقف التي اتخذت تجاه الخليفة الجديد، وانتهاء بالانتصارات المتتالية التي كان يحققها جيش المسلمين. وكان الشعراء في أثناء ذلك كله يخوضون في موضوعات شعرية مختلفة، منها ما هو جديد بعض الجدّة، كالتعبير عن الندم الثبات والالتزام، وتنبيه القوم مما هم

---

[22] – ديوان الرّدة: 220. وانظر ص: 181. النكس: الضعيف الذليل. الزُّمّيل: الجبان. وحريث بن زيد الخيل الطائي، له صحبة، وشهد الرّدة مع خالد بن الوليد(أسد الغابة: 1/ 399).

[23] – ديوان الرّدة: 181. مفوّقة: جاهزة للرمي. ورهاء مطلقة: حمقاء مطلقة من كل قيد، لا تعرف انضباطا عندما تدور. رِقّة: الرقة هي الوَرِق، بفتح الواو وكسر الراء، وهي الفضة، وقد حذفت منها الواو كما حذفت من عدة وسعة وزنة، وعوض عنها بتاء التأنيث، وأصل وزنها"فِعلة".

[24] – السابق: 71. نذود: ندافع. حنيفة: قبيلة مسيلمة الكذاب، المداودا: لعلها"المذاودا" والمذاود: المدافعون.

[25] – السابق: 147. وانظر الرجز الذي قاله من قتل الأسود ص: 260. شبث: هو شبث بن ربعي، مؤذنها. وقيس: هو قيس بن عاصم، أحد زعماء بني تميم الكبار. لقيت ويسا: أي لقيت بغيتها. حيس عندي حيسا: فسد ولم يحكم أمره.

فيه من ضلال، والتعبير عن الندم، والتعبير بالارتداد. ومنها ما لم كذلك؛ كالرثاء، والفخر، والعتاب والشكوى. أما الموضوعات الأخرى؛ كالمديح، والغزل، وغيرهما، فلا نكاد نجد لها أثرا.

كان لغياب الرسول الكريم(ص) – وهو مؤسس الدولة الإسلامية، وقائدها الأول – أثر كبير في المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية، إذ ألفى ذلك المجتمع نفسه أمام تجربة جديدة لا سابق عهد له بها، وكان من الطبيعي أنْ تسوده حالة من الاضطراب، تختلف شدّتها، بين منطقة وأخرى، تبعا لعوامل متعددة، ولكنها ترتبط أساساً بأمرين؛ الأول هو مدى التأثر بالإسلام، والثاني هو مدى القرب من مركز السلطة الإسلامية. وفي ضوء ذلك يمكن أنْ نفهم كيف تم الانتصار على تلك الحالة بسرعة، في بعض الأماكن، بينما تطورت إلى ردّة، أو تمرّد، في أماكن أخرى.

كان لوقع نبأ وفاة الرسول(ص) على الناس آثار متباينة، تختلف باختلاف مواقفهم منه خلال حياته(ص) فقد حزن أصحابه والمؤمنون بدعوته، وفرح أعداؤه من المتنبئين، وأتباع المتنبئين، هؤلاء الذين كانوا يرونه عقبة كأداء في طريق تحقيق مطامعهم، وأحلامهم بالزعامة، ، ولذلك تلقوا نبأ وفاته بفرحة غامرة، ظنا منهم أنه ليس ثمة ما يقف عائقا بينهم وبين تحقيق طموحاتهم.

فمسيلمة يعلن فرحه بموت الرسول(ص)، ويعبر بوضوح عن أنْ فرصته في الوصول إلى ما كان يطلبه قد أتت. والطريف أنه ينظر إلى النبي(ص) على أنه نبيّ بني هاشم وحدهم، بينما يدّعي لنفسه أنه نبيّ بني يعرب[26]!

ومن الطبيعي أنْ يفرح لموت النبي(ص) كلّ من كان يرى في دعوته(ص) خطرا على مصالحه، وتهديدا لها، غير أنه من اللافت أنّ الشعر لم ينس تصوير موقف بغايا حضرموت من موت النبي(ص)، إذ يبدو أنّ ما أبدته تلك البغايا، كان شديد الوقع في نفوس المسلمين الذين كان الحزن يعتصر قلوبهم، فراح بعض شعرائهم يوجه الرسائل إلى الخليفة، ذاكرا فعلهنّ، مطالبا بالقصاص منهنّ، ومن هؤلاء الشعراء امرؤ القيس بن عابس الكندي[27] الذي يقول في كتاب أرسله إلى أبي بكر[28]:

[الكامل]

شَـــمَتَ البَغايَـــا يـــومَ أَعلَـــنَ جَهْبَـــلٌ بِنَعِـــيِّ أَحمـــدٍ النَّبـــيِّ المُهتَـــدي[29]
صـــلى الإلـــهُ عليـــهِ مـــن مُسْـــتَوْدَعٍ أمســـى بيثـــربَ ثاويـــاً فـــي مَلْحَـــدِ[30]

إلى أن يقول:

اشـــفِ الغَليـــلَ بِقَطْعِهِـــنَّ، فإنَّهـــا كـــالجَمْرِ بـــينَ جَـــوانِحي لَـــمْ تَبْـــرُدِ

[26] – انظر شعره الذي يعبر به عن فرحه بوفاة الرسول(ص) في ديوان الرّدة: 36.

[27] – امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس، من كندة، وفد إلى النبي(ص) فأسلم وثبت على إسلامه، وكان شاعرا، نزل الكوفة. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم. *أسد الغابة في معرفة الصحابة* (بيروت: دار إحياء التراث، طبعة حجرية، بلا تاريخ)115/1.

[28] – ديوان الرّدة: 77، 78، وانظر مثالا آخر ص: 235.

[29] – أحمد اسم ممنوع من الصرف، ولكنه صرف بالكسر والتنوين ليستقيم الوزن. جهبل: هو جهبل بن سيف الذي نعى النبي(ص) لأهل حضرموت.

[30] – مستودع: مودع في التراب؛ مدفون. ثاويا: مقيما. ملحد: اسم مكان من لحد يلحد، واللحد: القبر.

أ- الموقف من خلافة أبي بكر:

لم تكن القبائل العربية قد اعتادت، خلال حياة الرسول(ص)، الخضوع لسلطة خارج إطار سلطة القبيلة، ومعروف أنّ قبائل كثيرة لم تعلن إسلامها إلا في السنوات القليلة الأخيرة من حياته(ص) ومن المتوقع أنّ وفود تلك القبائل إلى الرسول(ص) جاءت تعبّر عن موقف سياسي، دفعت إليه انتصارات جيش المدينة، تلك الانتصارات التي توّجت بفتح مكة، أكثر مما جاءت تعبّر عن موقف دينيّ يدلّ على إيمانها بالرسالة الإسلامية، وما تدعو إليه من وحدة بين المسلمين. وإذا كانت قد قبلت-وإنْ يكن على مضض- بزعامة الرسول(ص) فقد فعلت ذلك من خلال نظرتها إليه على أنه نبيّ جاء لكل الناس، ولم يأتِ لقبيلته وحدها، ولذلك كان من الصعب أنْ ترضى بخضوعها لزعامة رجل آخر قد تقوده عصبيته القبلية إلى الانحياز إلى قبيلته. وهذا ما عبّر عنه، بوضوح، عيينة بن حصن[31]، الذي قام في غطفان، بعد وفاة الرسول(ص) فقال: "ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد، وإني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طلحة، والله لأن نتبع نبيا من الحلفين أحبّ إلينا من أنْ نتبع نبيا من قريش، وقد مات محمد وبقي طلحة. فطابقوه على رأيه، ففعل وفعلوا"[32]. وهذا ما عبر عنه، أيضا، الحطيئة، الذي استغرب إمكانية الخضوع لغير النبي(ص) ورأى أنّ القبول بانتقال السلطة إلى أبي بكر، يعني القبول بالخضوع له ولأبنائه من بعده، جريا على النظام القبلي، وهو ما لا يطاق بالنسبة إلى رجل ما تزال العصبية القبلية تفعل فيه فعلها، يقول[33]:

[طويل]

أَطَعْنـــا رســـولَ اللهِ إذْ كـــانَ صَـــادِقاً فَيَـــا عَجَبـــاً مـــا بَـــالُ دِيـــنِ أَبـــي بَكْـــرِ
أَيورِثُنـــا بَكْـــراً إذا مَـــاتَ بَعْـــدَهُ فَتِلْـــكَ، وبيـــتِ اللهِ، قاصِـــمَةُ الظَّهْـــرِ

ورأى أهل "دبا"، من الأزد، في خلافة أبي بكر، ما رآه الحطيئة تماما، فأخذوا يرتجزون عندما تولى الخلافة[34]:

لقَـــدْ أتانـــا خَبَـــرُ رَدِيْ أَمْسَـتْ قـريشٌ كلُّهـا نَبِـيْ

---

[31] – هو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو بن جويرية بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة بن ذبيان الغطفاني الفزاري، أسلم بعد الفتح، وقيل أسلم قبل الفتح، وشهد حنينا والطائف، وكان من المؤلف قلوبهم، ومن الأعراب الجفاة. كان ممن ارتد وتبع طليحة وقاتل معه، فأخذ أسيرا وحُمل إلى أبي بكر(ر) فأسلم، فأطلقه أبو بكر(انظر أسد الغابة: 167/4).

[32] – تاريخ الطبري: 3/ 257.

[33] – ديون الرّدة: 120، وينازع الحطيئة على هذه الأبيات شعراء آخرون، انظر ديوان الرّدة، حاشية الصفحة 120. والبيتان للحطيئة في ديوانه برواية ابن السكيت(تحقيق نعمان محمد أمين طه. ط1، 1978، مطبعة المدني، القاهرة)ص:195. وكذلك في ديوانه من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني، شرح أبي سعيد السكري(دار صادر، بيروت، بلا تاريخ) ص: 143، ولكن صدر البيت الثاني: ليورثها... ويروى البيت الأول في كتاب الرّدة: 96 على النحو التالي:

أطعنا رسول الله إذ كان وسطنا فيا عجبا ممن يطيع أبا بكر

[34] – السابق: 262.

ظلمٌ لَعَمْرُ اللهِ عبقريْ[35]

واتخذ التعبير عن الاعتراض على خلافة أبي بكر صورة أخرى تجلّت في منع بعض عمال الصدقات، تسليمه الصدقات التي جمعوها، ومن أشهر هؤلاء العمال مالك بن نويرة اليربوعي[36]، وكان الرسول(ص) قد أرسله على صدقات بني حنظلة[37]، فلما سمع بموت الرسول(ص) وتسلم أبي بكر الخلافة "خلى ما كان في يده من الفرائض، وقال: شأنكم بأموالكم يا بني حنظلة"[38]، ويبدو من خلال بعض أشعاره أنّ موقفه هذا كان سياسياً، ولا علاقة للعقيدة به، إذ إنه لم ينكر شيئا من الإسلام، ولا توجد "أية إشارة في روايات المؤرخين تطعن بسلوكه الإيماني حتى من باب التشكيك"[39] ولكنه رفض تسليم الصدقات إلى خليفة لم يكن يراه أهلا للخلافة، على ما يبدو، فأعادها إلى أصحابها، من غير أنْ ينكر وجوبها، أو أنْ ينكر شيئا مما جاء به النبي الكريم(ص) وقال[40]:

[طويل]

وقَـــالَ رِجَـــالٌ: سَـــدَّدَ اليـــومَ مالِـــكٌ وقـــالَ رجـــالٌ: مالِـــكٌ لَـــمْ يُسَـــدِّدِ[41]
فقلـــتُ: دَعُـــوني، لا أبـــا لأبـــيكُمُ فلـــمْ أَحْـــظَ رأيـــاً فـــي المقـــامِ ولا النَّـــدي[42]
وقلـــتُ خُـــذوا أَمْـــوالَكُمْ غَيْـــرَ خَـــائِفٍ ولا نَـــاظِرٍ فيمـــا يَجـــيءُ بِـــهِ غَـــدي
فـــدونكُمُوها، إنَّمَـــا هـــي مـــالُكُمْ مُصَـــوَّرَةً أخلافُهـــا لـــم تَجَـــدَّدِ[43]
سَـــأجعَلُ نَفْســـي دونَ مَـــا تَحذَرُونَـــهُ وأُرْهِـــنُكُمْ يومـــاً بمـــا قُلْتُـــهُ يَـــدي[44]
فَـــإنْ قـــامَ بـــالأمرِ المُجـــدَّدِ قَـــائِمٌ أَطَعْنـــا، وقلنـــا: الـــدِّينُ دِيْـــنُ محمَّـــدِ

وواضح أنّ مالكاً كان يدرك تماما خطورة ما قام به، ويدرك أنّ له تبعات جسيمة، فهو يعلن استعداده لتحملها، ويعبر بوضوح عن مسؤوليته عن سلوكه، إذ إنّ موقفه لم يكن يحظى بإجماع أهل الرأي من قومه.

وإذ كانت بعض الأصوات قد ارتفعت معلنة اعتراضها على تولية أبي بكر أمور المسلمين، فإنّ أصواتا أخرى ارتفعت معلنة تأييدها له، واستعدادها لمؤازرته، وقبولها بقيادته، منها صوت مسروق بن ذي الحارث

---

[35] – عبقري: عجيب غريب، وعبقري نسبة إلى عبقر؛ وهو موضع تسكنه الجنّ، وكانت العرب تنسب إليه كل ما هو خارق للعادة.

[36] – هو مالك بن نويرة بن حمزة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع التميمي اليربوعي، قدم على النبي(ص) وأسلم واستعمله الرسول(ص) على بعض صدقات بني تميم، فلما توفي الرسول(ص) وارتدت العرب، وظهرت سجاح وادعت النبوة، صالحها، إلا أنه لم يظهر عنه ردّة(انظر نسبه وخبر مقتله في أسد الغابة:295/4).

[37] – السيرة النبوية: 4/ 161.

[38] – فتوح البلدان: 66. وانظر أخباره في تاريخ الطبري: 276/3.

[39] – إبراهيم بيضون. *ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري* (بيروت: دار النهضة العربية، 1979)28.

[40] – ديوان الرّدة: 72.

[41] – سدّد: رشد، وأصاب.

[42] – أحظ: أفز، من حظي يحظى. الندي: منتدى القوم، أو مجلسهم ما داموا مجتمعين فيه.

[43] – مصوّرة: هكذا وردت اللفظة في الديوان، والأصح: مصرّرة، من الصِّرار، وهو رباط تُصرُّ به ضروع الحلوبات إذا أرسلت إلى المرعى سارحة، لئلا تحلب أو يرضعها ولدها، فهي مصرورة ومصرّرة(انظر اللسان: صرر) دونكموها: اسم فعل أمر بمعنى خذوها. تجدّد: من تجدّد الضرع: ذهب لبنه.

[44] – يتعهّد الشاعر بتحمل مسؤولية ما قام به بالكامل.

الهمداني ثم الأرحبي[45]، الذي قدم على أبي بكر، فقال: يا خليفة رسول الله، إنّ بعدي أقواما أسلموا لله لا للناس، وأطال في خطبته، وأنشد أبياتا منها[46]: [الخفيف]

أَيُّهَـــــا القَـــــائِمُ المُعَصَّـــــبُ بالأَمْـــــ ـــــــرِ لأَنْـــــتَ المُصَـــــدَّقُ الصِّـــــديقُ[47]

إنَّ ذا الأمـــــــرَ فِـــــيكُمُ فَخُـــــــذوهُ ثُـــــمَّ قُـــــودوا إلـــــى النَّجـــــاةِ وسُـــــوقوا[48]

ب- تصوير المعركة:

كان من الطبيعي أنْ تستأثر المعارك التي دارت بين المسلمين والمرتدين، أو المتمردين، باهتمام الشعراء الذين شاركوا فيها، وكانت أولى تلك المعارك يوم وثب بنو ذبيان وعبس على المسلمين بذي القصّة[49]، فقاتلهم هؤلاء بشجاعة، وانتصروا عليهم بسرعة، وحلف أبو بكر "ليقتلن في المشركين كل قتلة، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة"[50] فقال زياد بن حنظلة التميمي[51] يصور ما جرى، ولكن بإيجاز يوازي قصر زمن المعركة[52]: [طويل]

أَقَمْنـــا لهـــم عُـــرْضَ الشّـــمالِ فَكُبْكِبـــوا كَكَبْكَبَـــةِ الغُـــزَّى أَنَـــاخوا علـــى الـــوَفْرِ[53]

فمـــا صَـــبَرُوا لِلْحَـــرْبِ عنـــدَ قِيامِهـــا صَـــبيحَةَ يَسْـــمو بالرِّحَـــالِ أَبـــو بَكْـــرِ[54]

طَرَقْنـــا بنـــي عَـــبْسٍ بـــأَدنى نِباجِهـــا وَذُبْيـــانَ نَهْنَهْنَـــا بِقاصِـــمَةِ الظَّهْـــرِ[55]

ولكن المعركة الأشد والأقسى، من معارك حروب الرّدة، كانت معركة عقرباء[56]، التي سميت حديقة الموت لكثرة من قتل فيها، ومع ذلك فإن الشعر الذي يتحدث عن هذه المعركة قليل جدا، وموجز، ولا يصور مجرياتها،

---

[45] -مسروق بن ذي الحارث الهمداني ثم الأرحبي: ذكره وثيمة في كتاب الردة فقال: لما بلغ ابن ذي المشعار الهمداني- وكان ملك ناحيته- أن قومه همّوا بالرّدة، قام فيهم خطيبا فحرّضهم على الثبات على الإسلام، فقام إليه مسروق فقال: أيها الملك، إنه لا يبلّغ عنك قريشا إلا رجل من قومك مثلي، فابعثني إلى خليفة رسول الله(ص) ففعل. فجاء إلى أبي بكر(ر) فأخبره الخبر، وأنشد بين يديه شعرا(انظر الإصابة في تمييز الصحابة: 652/3).

[46] – السابق: 178.

[47]- القائم المعصّب بالأمر: يريد بأمر الخلافة. والمعصّب: يريد به المنوطة به الخلافة.

[48] – فيكم: يريد في قريش. قودوا وسوقوا: أي قودوا الناس وسوقوهم بسياستكم إلى ما تريدون.

[49] – ذو القصّة: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا. ياقوت بن عبد الله الحموي. معجم *البلدان*(بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1994) 4/ 366.

[50] – تاريخ الطبري: 3/ 264.

[51] -هو الذي بعثه الرسول(ص) إلى قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر ليتعاونا على مسيلمة وطليحة والأسود، وقد عمل لرسول الله(ص) وكان منقطعا إلى علي بن أبي طالب، وشهد معه مشاهده كلها(أسد الغابة: 2/ 213).

[52] – ديوان الرّدة: 124.

[53] – العرض: الناحية. كبكبوا: تدافعوا مولين. الغزى: الغزاة. الوفر: الكثير من المال والمتاع ونحوهما.

[54] – يسمو: ينهض بهم لمعالي الأمور.

[55] – النباج: موضع في ديار بني عبس. نهنهنا: كفكفنا.

[56] -انظر خبر المعركة في كتاب الرّدة:68 وما بعدها.

وإن كان يعبر عن قسوتها من خلال ذكره للدماء الغزيرة التي سالت على ساحتها كما نجد في قول ضرار بن الأزور[57]: [طويل]

ولَـــو سَـــأَلَتْ عنَّـــا جنـــوبٌ لَخُبِّـــرَتْ عَشِـــيَّةَ ســـالَتْ عقربـــاءُ بهـــا الـــدَّمُ[58]
وسَـــالَ بِفـــرعِ الـــوادِ حتّـــى تَرَقْرَقَـــتْ حِجارتُـــهُ فيـــهِ مِـــنَ القَـــوْمِ بالـــدَّمِ[59]
عَشـــيَّةَ لا تُغْنـــي الرِّمـــاحُ مكانَهـــا ولا النَّبْـــلُ إلاّ المَشْـــرِفِيُّ المُصَـــمَّمُ[60]

وصور شعراء المرتدين المعارك كما فعل شعراء الجيش الإسلامي، ولكن ما لاحظناه عند أولئك نلاحظه عند هؤلاء؛ من قلة هذا الشعر، وإيجازه، وعدم التفصيل في ذكر الحدث. فهذا الحطيئة يقف عند معركة الغمر[61]، ولكنه لا يفصّل، ولا يحدثنا عن المعركة، بل يقصر حديثه على تأنيب الذين أعلنوا الطاعة فأعطوا الزكاة، والإشادة بموقف المرتدين الذين لا ينسى أن يحرضهم على محاربة المسلمين، فيقول[62]:

[طويل]

ألا كـــلُّ أَرمَـــاحٍ قِصَـــارٍ أَذِلَّـــةٍ فِـــداءٌ لأرمـــاحٍ رُكِـــزْنَ علـــى الغَمْـــرِ
فَـــإنَّ الـــذي أعطيـــتُمُ أَوْ منعـــتُمُ لَكَـــالتَّمْرِ أَوْ أَحْلَـــى لِخَلْـــفِ بنـــي فهْـــرِ[63]
فَباسْـــتِ بنـــي عَـــبْسٍ وأَفْنـــاءِ طَيِّـــىءٍ وباسْـــتِ بنـــي دُودانَ حاشـــا بنـــي نَصْـــرِ[64]
فِـــدىً لِبَنـــي ذبيـــانَ أُمّـــي وَخَـــالَتي عَشِـــيَّةَ يُحْـــدَى بالرِّمـــاحِ أَبـــو بكـــرِ[65]
أَبَـــوا غيـــرَ ضَـــرْبٍ يَحْطُـــمُ الهـــامُ وســـطَهُ وطَعـــنٍ كَـــأفواهِ المُرقَّعَـــةِ الحُمْـــرِ[66]
فقُومـــوا ولا تُعطـــوا اللِّئـــامَ مَقَـــادَةً وقومـــوا وإنْ كـــانَ القيـــامُ علـــى الجَمْـــرِ[67]

---

[57] – ديوان الرّدة: 223. وانظر شواهد أخرى ص: 41، و35، و34، و31، و30، و52، و179، و50. وضرار بن الأزور(واسم الأزور مالك بن أوس) صحابي، فارس شجاع، قيل إنه قتل باليمامة، وقيل قتل بأجنادين، وقيل غير ذلك(انظر أسد الغابة: 39/3).

[58] – جنوب: اسم امرأة. وعقرباء: منزل من أرض اليمامة(معجم البلدان: 4/ 135)

[59] – في البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروي. الواد: الوادي، وحذفت الياء للتخفيف. ترقرقت: يريد جاءت وذهبت بتأثير قوة السيلان.

[60] – كان الواجب نصب حرف الروي، ولا يجوز الرفع إلا بتقدير جملة محذوفة، ويكون التقدير: ولا يغني إلا المشرفي المصمم. المشرفي: نسبة إلى مشارف، قرى قرب حوران من أعمال دمشق إليها تنسب السيوف المشرفية(معجم البلدان: 5/ 131). المصمم: القاطع.

[61] – الغمر: ماء من مياه بني أسد(معجم البلدان: 4/ 212). وكان خالد بن الوليد قد سار إلى الغمر، وهناك جماعة من بني أسد وغطفان وغيرهم، وعليهم حصن بن حذيفة، يقال إنهم كانوا متسايدين، قد جعل كل قوم عليهم رئيسا منهم، قاتلوا خالدا والمسلمين، فقتلوا جماعة منهم وانهزم الباقون(فتوح البلدان: 65).

[62] – ديوان الرّدة: 119.

[63] – لخلف بني فهر: يريد لأبناء قريش.

[64] – باست فلان: صيغة شتيمة؛ فالاست: الدبر. أفناء طيىء: قبائلها. دودان: هو دودان بن خزيمة بن أسد. علي بن أحمد بن حزم. *جمهرة أنساب العرب*(القاهرة: دار المعارف، ط3، 1971) 190. و نصر : هو نصر بن قُعَيْن بن الحارث بن ثعلبة بن دودان(جمهرة أنساب العرب: 194) وهو أحد خمسة أخوة، ولكن أبناءه وحدهم كانوا من المرتدين.

[65] – يحدى: يساق.

[66] –الهام: الرؤوس. كأفواه المرقعة: كأفواه القرب؛ يريد طعنا شديدا يترك الجروح واسعة.

[67] – اللئام: يقصد المسلمين. مقادة: طاعة. وقوموا: يحرضهم على مناهضة الخليفة مهما كان ذلك مكلفا.

ولا يزيد أبو شجرة بن عبد العزى على ما قاله الحطيئة، فقد ارتد بعض قومه فارتد معهم، وحارب معهم جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، فقال قصيدة افتخر فيها بقومه وقوتهم، ومراسهم في الحروب، ثم عبّر عن غبطته لقتل من قتل من جيش المسلمين، ومنها[68]: [طويل]

ألا أَيُّهَـــا المُـــدْلي بِكثـــرةِ قومِـــهِ ... وَحَظُّـــكَ مَـــنهُمْ أَنْ تُضَـــامَ وتُقْهَـــرا[69]

سَـــلِ النَّـــاسَ عنّـــا كُـــلَّ يـــومٍ كريهَـــةٍ ... إذا مـــا التَقَيْنـــا دارعـــينَ وَحُسَّـــرا[70]

أَلَسْـــنا نُعـــاطي ذا الطِّمـــاح لِجَامَـــهُ ... ونَطعَـــنُ فـــي الهَيْجـــا إذا المـــوتُ أَقْفَـــرا[71]

وعارضَـــهُ شَـــهباءُ تَخْطِـــرُ بالقَنَـــا ... تَـــرى البُلْـــقَ فـــي حافاتِهـــا والسِّـــنَوَّرا[72]

فَرَوَّيْـــتُ رُمْحـــي مِـــنْ كَتيبـــةٍ خالِـــدٍ ... وإنِّـــي لأرجـــو بعـــدَها أَنْ أُعَمَّـــرا

ج- إعلان الثبات والالتزام:

لم يكن الموقف المناوئ للإسلام، الذي أعلنته بعض القبائل، يعبر، دائما، عن موقف بطون القبيلة جميعها، فقد حدث أنْ كان لبعض القبائل موقف خالفتها فيه بعض البطون، وكان على شعراء البطن المخالف أنْ يعبروا عن موقف رهطهم؛ افتخارا بالتزامهم بالدين من جهة، وإعلانا لبراءتهم من تبعات حركات قبائلهم الأم. ومن ذلك ما قاله عقبة بن النعمان العتكي[73]، وكان قد ثبت على الإسلام مع جماعة من قومه، فشايعوا عمرو بن العاص، لحمايته ممن ثار عليه، حتى قدموا على أبي بكر[74]:

[طويل]

وَفَيْنـــا لِعَمْـــرٍو يـــومَ عَمـــرٍو كأنَّـــهُ ... طَريـــدٌ بَغَتْـــهُ مَـــذْحِجٌ والسَّكاسِـــكُ[75]

رســـولُ رســـولِ اللهِ أَعْظِـــمْ بِحَقِّـــهِ ... علينـــا وَمَـــنْ لا يعـــرف الحـــقَّ هالِـــكُ

ونحـــنُ أُنـــاسٌ يَـــأْمَنُ الجَـــارُ وَسْـــطَنا ... إذا كـــانَ يـــومٌ كاســـفُ الشَّـــمسِ حالِـــكُ[76]

---

[68] –ديوان الرّدة: 109. وانظر شاهدا آخر في المصدر نفسه ص 44، و216، و90.

[69] – المدلي: المدلّ والمفتخر. تضام: تذلّ.

[70] – الكريهة: الحرب، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. دارعين: لابسي الدروع. حسّرا: خالعي الدروع.

[71] – ذو الطماح: ذو الأشر والوقاحة والتكبّر، ونعاطيه: نشكمه فلا يتجرّأ علينا. أقفر الموت: عزّ، ويقصد إذا جبن الأبطال وأحجموا عن القتال.

[72] – الشهباء: الكتيبة المدججة بالسلاح. تخطر: ترفل، ويقصد فرسانها. القنا: الرماح. البلق: الخيول المحجلة، جمع بلقاء؛ وهي الفرس التي يختلط سواد لونها ببياضه. السّنوّر: كل سلاح من حديد.

[73] – هو من أهل عمان، أتى الرسول(ص) حين مات(أسد الغابة: 421/3).

[74] – ديوان الرّدة: 189. وانظر أيضا ص: 92. وانظر قول الزبرقان بن بدر في كتاب الرّدة: 40.

[75] – بغته: طلبته لتنال منه. مذحج والسكاسك: من قبائل الجنوب، وهم من القبائل القحطانية.

[76] – في ديوان الرّدة: إذا كان يوم.....هالك. وفسرها جامع الديوان بمعنى الجدب، وقال: الهَلَك: السنون الجدبة. ولكنني رأيت أنه من الأصح أن تكون (حالك) لأنها تناسب السياق أكثر، إذ إن الشاعر يتحدث عن موقف قومه من الفتنة، ويشير إلى أن الجار يأمن عندهم في يوم كاسف الشمس، كناية عما فيه من أمور شديدة.

وإذا كانت حماية العمال، الذين أرسلهم الرسول(ص) إلى بعض المناطق، تعبيرا واضحا عن الالتزام بالإسلام، من قِبل من قاموا بالحماية، فإنّ تأدية الصدقات إلى الخليفة الجديد، من قِبل العمال المكلفين بجمعها، كانت تعبيرا عن التزام هؤلاء بالإسلام، وعن تأييدهم للخليفة، أيضا، ولاسيما أنّ بعض المكلفين أعلنوا رفضهم تسليم الصدقات لأبي بكر، وفُهم سلوكهم على أنه اعتراض على خلافته.

وكان ممن أدى الصدقات، ورأى في تأديتها مفخراً؛ الزبرقان بن بدر، وكان الرسول(ص) قد ولاه صدقات ناحية من قومه بني سعد، وولى قيس بن عاصم على ناحية[77]، فقال حين أبلغ صدقته أبا بكر[78]:

[طويل]

وفيتُ بأذوادِ الرَّسولِ وقد أَبَتْ سُعاةٌ، فلم يردُدْ بعيراً مُجيرُها[79]
معاً وَمَنَعْناها مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ترامي الأعادي عندنا ما يُضيرُها[80]
فأدّيْتُها كي لا أَخونَ بِذِمَّتي مخانِيقَ لم تُدْرَسْ لِركبٍ ظهورُها[81]

كذلك عبّر بعض الأشخاص عن ثباتهم عندما ارتدت قبائلهم، وأرسلوا أشعارهم إلى الخليفة يعلمونه بمواقفهم[82]، وقد يشاركهم موقفهم أشخاص معدودون من أقوامهم، فيذكرون أسماءهم عندئذ[83]، وكأنهم يريدون إبلاغ الخليفة بكل ما من شأنه أنْ يسهم في إنجاح مهمته.

د- تنبيه القوم وتأنيبهم:

كانت القبائل المرتدة – في الغالب – قبائل بدوية، لم تعلن إسلامها إلا في وقت متأخر، بعد يقينها بعبثية المقاومة، ومن شأن ذلك أنْ يشكل حجابا يحول بينها وبين الاطلاع على ما جاء به الدين الجديد، والتأثر بقيمه ومبادئه. ولذلك كان من الطبيعي أنْ ينساق أبناء تلك القبائل، بدافع العصبية، خلف المواقف التي يتخذها زعماؤها. ولكننا مع ذلك نسمع أصواتا من تلك القبائل تعبّر عن موقف خاص بها، يختلف عن صوت القبيلة العام، إنها أصوات تعكس اهتمام أصحابها بالإسلام، واطلاعهم على ما جاء به، واستعدادهم لتلقي الفيض الروحي الذي حمله. ومنها صوت عمير بن الحصين النجراني[84]، الذي خطب في قومه أهل نجران – وكانوا قد أسرعوا إلى الرّدة بعد وفاة الرسول(ص)- فدعاهم إلى التفكير فيما يفعلون، وإلى التمسك بالدين، وقال[85]:

[خفيف]

---

[77] – السيرة النبوية: 4/ 161. والزبرقان هو ابن بدر بن امرئ القيس بن خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي السعدي. انظر ترجمته في أسد الغابة في معرفة الصحابة: 194/2.

[78] – ديوان الرّدة: 141.

[79] – الأذواد: المقصود بها إبل الصدقة. السعاة: الجباة.

[80] – يضيرها: يؤذيها.

[81] – مخانيق: جمع مخنوقة، أي مربوطة بالخنق، مفرد خِناق، وهو الحبل. لم تدرس: لم تستعمل، أي لم تركب، لأنها من مال المسلمين.

[82] – انظر السابق: 201، و 250.

[83] – انظر السابق: 105.

[84] – عمير بن الحصين من أهل نجران، كان ممن ثبّت أهل نجران على الإسلام لما ارتدت العرب(أسد الغابة: 143/4).

[85] – ديوان الرّدة: 135. وانظر ص: 148. وص: 202.

أهـــلَ نجـــرانَ أَمْسِـــكوا بِهُـــدى الـــ ـــلَهِ، وكونـــوا يـــداً علـــى الكُفَّـــارِ
لا تكونـــوا بعـــدَ اليقـــينِ إلـــى الشَّكـــ ـــكِ، وبعـــدَ الرِّضـــا إلـــى الإنكـــارِ
واسْـــتقيموا علـــى الطَّريقَـــةِ فيـــ ـــهِ وكونـــوا كهيئـــة الأنصـــارِ[86]

ومنها صوت ضرار بن الأزور، الذي أخذ يعبر عن استيائه من ردّة قومه بني أسد، ويعلن أنهم على ضلال، ويشير إلى أنه قد اجتهد في هدايتهم، ولكنهم أبوا إلاّ الغي والضلالة، يقول[87]: [طويل]

بنـــي أَسَـــدٍ قـــد ســـاءَني مـــا صَـــنَعْتُمُ ولـــيسَ لِقـــومٍ حَـــاربوا اللهَ مَحْـــرَمُ
وأَعلـــمُ حَقّـــاً أَنَّكُـــمْ قـــد غَـــوَيْتُمُ بنـــي أَسَـــدٍ فاســـتأخِروا أَوْ تَقَـــدَّموا[88]
نَهَيْـــتُكُمُ أَنْ تُنْهِبُـــوا صـــدقاتِكُمْ وقلـــتُ لكُـــمْ: يـــا آلَ ثَعْلَبَـــةَ اعلمُـــوا[89]
عَصَـــيْتُمْ ذوي أَحلامِكُـــمْ وأَطَعْـــتُمُ ضُـــجَيْماً، وأَمْـــرُ ابـــنُ اللقيطـــةِ أَشْـــأَمُ[90]

وإذا كان عمير النجراني قد نصح قومه، وضرار بن الأزور أنّبهم، فإنّ بعض الشعراء لم يكتفوا بالنصيحة والتأنيب، بل حذروا أقوامهم تحذيرا لا يخلو من تهديد، كما نجد في قول عبد الله بن عتبة أخي بني نفيل[91]، فقد ارتد قومه فخطبهم، وذكّرهم، فخالفوه، فقال[92]: [طويل]

بنـــي عـــامرٍ لســـتُمْ بِـــأَخْوفَ شَـــوْكَةٍ ولا جَمْـــرَةٍ فـــي النَّـــاسِ مـــن غَطَفـــانِ[93]
ولـــيسَ لَكُـــمْ بـــالبَحرِ حَـــابِسُ طاقَـــةٍ ولـــيسَ لكـــمْ بالمُســـلمينَ يـــدانِ[94]

وقد كانت البلاد تضيق ببعض المسلمين الذين خالفوا أقوامهم، وتمسكوا بإسلامهم، فانفردوا بمواقفهم، ولم يجدوا أذنا صاغية لما يقولون، أو عقلا مدبرا يهتدي إلى رشد، فأحسوا بالغربة، ولم يطيقوا مرارتها، فرأوا في الرحيل عن ديار أقوامهم هدى، ولولا شدّة المعاناة لما بدا لهم كذلك، ومن هؤلاء ثمامة بن أثال الذي يقول[95]:

[طويل]

---

[86] – الطريقة: الصراط المستقيم، قال تعالى: "وأَلَّوِ اسْتَقَامُوا على الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْناهُمْ مَاءً غَدَقا"0الجن: 16/72).

[87] – ديوان الرّدة: 222. وانظر ص: 52، وص: 210. وانظر الشعر الذي كتبه يزيد بن خزيمة الأسدي إلى بني عمه في كتاب الرّدة:43.

[88] – فاستأخروا أو تقدموا: أي فاختاروا لأنفسكم الرشد أو الضلال.

[89] – يا آل ثعلبة: يريد ثعلبة الحلاف بن دودان بن أسد.

[90] – ضجيم: هو طليحة بن خويلد. وابن اللقيطة: يريد به عيينة بن حصن.

[91] – عبد الله بن عتبة أحد بني نفيل، كان فيمن أشار إلى فروة بن هبيرة بلزوم الإسلام. يوسف بن عبد الله القرطبي. *الاستيعاب في معرفة الأصحاب* (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1955) 76/3.

[92] – ديوان الرّدة: 258. وانظر شاهدا آخر ص: 54، و ص: 24، وص: 95، وص: 125.

[93] – شوكة: نمييز، ويعني بها قوة، وكذلك جمرة. وحرّك غطفان بالكسر للضرورة، فهي ممنوعة من الصرف.

[94] – حابس طاقة: أي قوة قد تكون معينا لكم. وليس لكم بالمسلمين يدان: يريد لا قدرة لكم على مواجهتهم.

[95] – السابق: 151. وثمامة أحد رجالات بني حنيفة المشهورين، أسلم وحسن إسلامه، ولم يرتد لما ارتد مسيلمة وبنو حنيفة، وخرج مع بعض من ثبت على الإسلام معه، مع العلاء الحضرمي لمحاربة مرتدي البحرين. انظر نسبه وأخباره في: أسد الغابة: 1/ 246، 247.

دعانـــا إلـــى تَـــرْكِ الدّيانَـــةِ والهُـــدَى مُسَـــيلَمَةُ الكـــذّابُ، إذْ جَـــاءَ يَسْـــجَعُ
فيـــا عَجَبـــاً مِـــنْ مَعْشَـــرٍ قـــد تتـــابَعُوا لـــه فـــي ســـبيلِ الغـــيِّ، والغـــيُّ أَشْـــنَعُ
وفـــي البُعـــدِ عـــن دارٍ وقـــد ضَـــلَّ أَهلُهـــا هُـــدىً واجتمـــاعٌ كـــلُّ ذلـــكَ مَهْيَـــعُ[96]

هـ- التعيير بالردة:

لم يَجُبّ الرجوعُ إلى الجماعة الإسلامية، والانطواءُ تحت رايتها، ما قبله، في نفوس الناس، فقد ظلّ هؤلاء يرون فيما فعله المرتدون، والمتمردون، عارا عليهم، وكأنهم لم يقبلوا منهم عذرا، ولا ندامة، ولا توبة، فراحوا يعيّرونهم بما كان، كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

وهذا رجل من بني ضبيعة يدعى وهبا، يعيّر من ارتد من بكر بن وائل، فيذكر أنّ ما حدث غداة وفاة الرسول(ص) كان امتحانا من الله لعباده، ليميز الخبيث من الطيب، فالخبيث من ارتد، والطيّب من ثبت على إسلامه، فيقول[97]:

ألَـــمْ تَـــرَ أنَّ الله يســـبُكُ خلقَـــهُ فَيَخْبُـــثَ أقـــوامٌ ويصـــفوَ مَعْشَـــرُ
لحـــى اللهُ أقوامـــاً أُصـــيبوا بخُنْعَـــةٍ أصـــابَهُمُ زيـــدُ الضّـــلال ومَعْمَـــرُ

ويبدو أنّ حظ بني حنيفة من التعيير كان أعظم، لأنّ هؤلاء اتبعوا كذابا، وآمنوا بنبوته، وحاربوا أهل الدين الحق تحت لوائه، فكشفوا بذلك عن خفّة أحلامهم، وسفه آرائهم. وقد عيّرهم المسلمون بذلك كله، وأكثروا، حتى لقد ضاق علي بن هوذة الحنفي بذلك، فقام يردّ عليهم، لا بادعاء أعذار تبرئ قومه، ولكن بتوضيح أنهم لم يكونوا إلا كغيرهم من المرتدين، ولذلك فهم لا يستحقون من اللوم أكثر مما يستحق غيرهم، ولكنه، مع ذلك، يعترف بأنهم كانوا في ضلالة، لا يميزون بين الحق والباطل، ويعلن ندمه الشديد على ما كان منهم، فيقول[98]:

[متقارب]

رَمَتْنـــــا القبائِـــــلُ بِـــــالمُنكَراتِ ومَـــا نحـــنُ إلاّ كَمَـــنْ قـــد جَحَـــدْ
ولَســـنا بِـــأَكفرَ مِـــنْ عَـــامِرٍ ولا غَطَفَـــانَ، ولا مِـــنْ أَسَـــدْ
ولا مِـــنْ سُـــلَيْمٍ وأَلفافِهَـــا ولا مِـــنْ تَمـــيمٍ وأَهْـــلِ الجَنَـــدْ[99]
ولا ذي الخِمـــارِ ولا قَوْمِـــهِ ولا أَشْـــعَثِ العُـــرْبِ لـــولا النَّكَـــدْ[100]
وكنّـــا أُناســـاً علـــى غِـــرَّةٍ نَـــرَى الغَـــيَّ مـــن أَمْرِنَـــا كالرَّشَـــدْ
نَـــدينُ كَمَـــا دانَ كَـــذّابُنا فَيَـــا لَيْـــتَ والِـــدَهُ لـــم يَلِـــدْ

---

[96] – مهيع: متسع، مندوحة.

[97] – السابق: 103. وانظر أيضا ص: 242.

[98] – السابق: 99.

[99] – الجند: منطقة من مناطق اليمن(انظر معجم البلدان: 169/2).

[100] – ذو الخمار: الأسود العنسي. وأشعث العرب: المراد به الأشعث بن قيس. النكد: الشقاء وسوء الطالع، يعني نفسه وقومه.

و- التعبيرعن الندم:

وتنتهي حروب الرّدة، ويدخل المرتدون في ما خرجوا منه، ويخضع المتمردون للقيادة في المدينة، وينطوي الجميع تحت ظلال الراية الإسلامية، ويعملون معا في سبيل نشر الدين الحنيف، ويدرك الذين حاربوا الإسلام، في أيّ ظلمة كانوا، وفي أي خطأ وقعوا، فيعضّون الأصابع ندما وحسرة، ويتلهفون على ما كان منهم، وتأتي أصوات الشعراء لتعبّر عن ذلك. يقول جندب بن سلمى المدلجي[101]، وكان قد ارتد ثم عاد، وقال[102]:

[طويل]

نَـــــدمْتُ وأَيْقَنْـــــتُ الغَـــــداةَ بِـــــأَنَّني أَتَيْـــتُ الّتـــي يبقـــى علـــى المَـــرْءِ عارُهـــا
شَـــــهدتُ بِـــــأنَّ اللهَ لا شـــــيءَ غيـــــرُهُ بنـــــي مـــــدلجٍ فَـــــاللهُ ربـــــي وجارُهـــــا[103]

وكان إحساس أبي صبيح السكوني بما فعله أشد، فجاء تعبيره عن مرارته أكثر وضوحا، إذ يقول[104]:

[طويل]

فَيـــا لَهْـــفَ نَفســـي، لَهْـــفَ نفســـي علـــى الّـــذي سَـــبانا بهـــا مـــن غـــيٍّ عميـــاءَ مُوبِـــقِ[105]
فأَفنيْـــتُ قَـــومي فـــي ألايـــا تَوَكَّـــدَتْ ومـــا كنـــتُ فيهـــا بالمُصـــيبِ المُوَفَّـــقِ[106]

ز- الرثاء:

وكان من الطبيعي أنْ تخلّف معارك الرّدة قتلى، وأنْ تخلّف شعرا قيل في رثائهم، وعندما نتأمل في ما قيل من شعر الرثاء، نجده – باستثناء رثاء متمم لأخيه مالك– مقطوعات قصيرة، ليس فيها تعبير عن حزن شديد، أو تفصيل في التعبير عن الحزن، أو إشارة واضحة إلى موقف المرثي، أو بطولته، أو خصاله الحميدة، بل يأتي شعر الرثاء، كما هي الحال في شعر تصوير المعركة، سريعا، موجزا، وكأن الوقت لم يكن كافيا للإبداع، أو أنّ مواهب الشعراء كانت محدودة، فلم يكن بوسعهم أنْ يعبروا عن أحزانهم على نحو أفضل.

ولنستمع إلى رثاء ثور بن مالك الكندي لقومه، وكان قد نصحهم فعصوه، فأوقع بهم المسلمون، فقال يعبر عن حزنه عليهم، وعن تأسفه لأنهم لم يطيعوه عندما نصحهم، يقول[107]: [متقارب]

وقُلـــــتُ: تحَلَّـــــوْا بِـــــدينِ الرَّســـــولِ فقـــــالوا: التـــــرابُ– سَـــــفاهاً– بفيكـــــا
فأصـــــبحتُ أَبكـــــي علـــــى هُلْكِهِـــــمْ ولـــــم أَكُ فيمـــــا أَتَـــــوْهُ شَـــــريكا

---

[101] – أحد بني مُدلج، وهم قبيلة تنتسب إلى بني مرّة بن عبد مناة بن كنانة(جمهرة أنساب العرب: 187).

[102] – ديوان الرّدة: 143.

[103] – جارها: أي الذي يجيرها من الملمات والمصائب.

[104] – السابق: 184. وانظر أيضا قول طلحة ص: ص83، و أبيات عطارد بن حاجب: 246. وص57.

[105] – سبانا: المراد سحر عقولنا، خدعنا. عمياء: يريد بها الرّدة. موبق: مهلكة.

[106] – ألايا: أي أيمان، جمع أليّة.

[107] – السابق: 190.

أما رثاء متمم بن نويرة لأخيه مالك، فيعد من أجمل ما قيل من الرثاء، ليس في حروب الرّدة فحسب، بل في صدر الإسلام كله، فهو رثاء يعبّر عن غصّة حارقة، وحزن عميق، وعن إحساس شديد بالظلم. وحكاية مقتل مالك، حكاية تعددت فيها الروايات، وتناقضت أحيانا، ولكن من المؤكد أنه كان مسلما ثابتا على إسلامه، لم يطعن بذلك أحد، حتى من باب التشكيك، ولذلك أثار مقتله غضب كثيرين ممن كانوا مع خالد يوم قتله، وحتى لقد غضب عمر بن الخطاب(ر) على خالد عندما بلغه ما فعل[108].

ولقد قال متمم شعرا كثيرا في رثاء أخيه، بعضه قصائد، وبعضه مقطعات، وهو في ذلك كله ينسج على منوال الجاهليين، ويسبغ على أخيه صفات زعيم جاهلي، ولكن المثير للدهشة حقا أنه لا يتحدث عن إيمان مالك، أو عن ثباته على الإسلام، ولا يتعرض لحكاية مقتله، ولا يدافع عنه، ولا يتهم خالدا، وإنما يكتفي بتصوير شدّة حزنه عليه، ومما قاله[109]: [طويل]

لَعَمْـــري ومَـــا دَهْـــري بِتَـــأْبينِ هالِـــكٍ ... ولا جَـــزَعٍ مِمّـــا أَصَـــابَ فأَوْجَعـــا
لقـــد كفَّـــنَ المِنْهـــالُ تحـــتَ رِدائِـــهِ ... فتـــىً غيـــرَ مِبْطـــانِ العَشـــيّاتِ أَرْوَعـــا[110]
ولا بَرَمـــاً تهـــدي النِّســـاءُ لِعِرْسِـــهِ ... إذا القَشْـــعُ مِـــن حـــسِّ الشّـــتاءِ تَقَعْقعـــا[111]
لبيـــبٌ أَعـــانَ اللـــبَّ منـــهُ سَـــماحةٌ ... خَصـــيبٌ إذا مـــا راكـــبُ الجـــدبِ أَوْضَـــعا[112]

ورثى المرتدون قتلاهم أيضا، فعبروا عن حزنهم عليهم بإيجاز، ومن رثائهم الجميل قول الأشعث بن قيس يرثي بشيرَ بن الأودج – وكان قد ممن وفد على الرسول(ص) ثم ارتد – ويزيدَ بن أماناة، ومن قتل يوم النجير، يقول رجل[113]: [طويل]

لَعَمْـــري ومَـــا عَمْـــري علـــيَّ بِهَـــيّنٍ ... لقـــد كنـــتُ بـــالقَتْلى أَحـــقَّ ضَـــنينِ
وكنـــتُ كَـــذاتِ البـــوِّ ريعَـــتْ فأَقبلَـــتْ ... علـــى بوّهـــا إذ طُرِّبَـــتْ بِحنـــينِ[114]
عـــن ابـــنِ أمانـــاةَ الكـــريمِ وبعـــدَهُ ... بشـــيرُ النَّـــدى، فَلْيَجْـــرِ دَمْـــعُ شـــؤوني
فليـــتَ جُنـــوبَ النّـــاسِ تحـــتَ جنـــوبِهِمْ ... ولـــمْ تَمْـــشِ أُنثـــى بعـــدَهُمْ بِجَنـــينِ

السمات الفنية:

[108] – انظر تاريخ الطبري: 3/ 280، وتاريخ اليعقوبي: 131.

[109] – ديوان الرّدة: 158، وانطر رثاء أبي زهير السعدي له ص:195 وما بعدها.

[110] – المنهال: هو ابن عصمة الرياحي، وكان قد كفّن مالكا في ثوبيه عندما مرّ عليه مقتولا. غير مبطان العشيات: أي لا يسرع بالعشاء منه ليحرم ضيفه. الأروع: الرائع، المعجِب.

[111] – البَرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. تهدي النساء لعرسه: أي تعطيها لحما وطعاما. القشع: البيت من الجلد. تقعقع: انخلع.

[112] – راكب الجدب: يعني الضيف المحتاج. أوضع: أسرع.

[113] – السابق: 252، 253. وانظر رثاء رجل من بني حنيفة لمسيلمة ص: 229. والأشعث هو ابن قيس بن معديكرب بن معاوية الكندي، وقيل غير ذلك، ارتد، ثم عاد، وشهد اليرموك والقادسية والمدائن وجلولاء، وصفين مع علي، توفي بعد علي بأربعين ليلة(أسد الغابة:1/98).

[114] – البوّ: جلد الفصيل بعد أن يموت يحشى تبنا ويوضع أمام أمّه ليدرّ لبنها. ريعت: فزعت. طرّبت: صوّتت.

لم تستمر حروب الرّدة لوقت طويل، ولكن النشاط الذي شهدته شبه الجزيرة العربية كان كثيفا، وكانت الأحداث تجري في أكثر من مكان، في الوقت نفسه، ولذلك كله لم يكن بوسع الشعراء أنْ يتأملوا في الأحداث، فيستنبطنوا دلالاتها، ولم يكن بوسعهم أنْ ينظموا أشعارهم بهدوء يمكّنهم من إعادة النظر فيها، والاهتمام بجانبها الجمالي، فجاءت أشعارهم كأشعار غيرهم من المقاتلين في الفتوحات "بنت اللحظة العاجلة، نظمت في لغة يسيرة دون احتفال بتنقيح أو صقل، أو ما يشبه التنقيح والصقل"[115] ولذلك كانت طوابعها تحمل طوابع شعر الفتوح نفسها تقريبا، من حيث الالتزام بالفكرة، والإيجاز، والقصر، والعفوية[116].

أغلب ما جاءنا من شعر الرّدة مقطعات أو قصائد قصيرة، وكان للرجز نصيب، ولكنه جاء أقل من المتوقع. ويلاحظ أنْ معظم قائلي الشعر الذي بين أيدينا لم يكونوا شعراء محترفين، بل كانوا أناسا تأثروا بما يجري بعمق فجاشت صدورهم بمشاعر وأحاسيس راحوا يعبرون عنها بالشعر، ولكن من غير أنْ يشغلوا أنفسهم بـ"فنيّة" الشعر الذي ينظمونه، ولم تكن أجواء القتال تتيح لهم الانصراف إلى لاهتمام بالجانب الفني لأشعارهم، على أية حال. ولذلك جاءت لغة أشعارهم بسيطة عفوية، إذ لم يكن لهم، في الغالب، ثقافة شعرية عميقة تمدهم بما يحتاجون إليه من ألفاظ وعبارات وصور، ولذلك جاءت أشعارهم قريبة من لغة الحياة اليومية، ولكنها تمضي على وزن، ويطغى عليها الانفعال. فالألفاظ بسيطة واضحة، والمعنى سطحيّ مباشر، ولا صعوبة في فهم تلك الأشعار إلا عندما ترد فيها أسماء مواضع، أو رجال غير مشهورين، أو إشارات إلى مواقف معينة، أو أحداث جرت تتطلب معرفتها اطلاعا واسعا على حركة الجيش المجاهد في تلك المرحلة الزمنية.

ولم يكن من المستغرب بعد ذلك أن نجد الصور الفنية قليلة في هذا الشعر، وليس فيها ما هو مميّز يستحقّ الوقوف للتأمل فيه. وهي صور تقوم في الغالب على التشبيه؛ تشبيه شيء بشيء من جهة الصورة والشكل، ويكون الشبه بيّنا واضحا لا يحتاج إلى جهد لفهمه.

ولكثرة القائلين من غير الشعراء نتيجة أخرى؛ هي أننا نقع على أشعار كثيرة لا يعرف أصحابها، اهتم بها الرواة لأنهم رأوا فيها تعبيرا عن موقف جماعي، وتناقلها الناس للسبب ذاته، فلم يشغلوا أنفسهم بنسبتها إلى قائليها.

ومن الملاحظ أنه ليس في شعر الرّدة عرض لحجج تدعم الموقف المتخذ، ولا محاولة لإقامة أدلّة أو براهين، وكل ما هنالك تعبير عن مواقف يرى أصحابها أنها صحيحة وسليمة، وكأنهم يرونها أوضح من أنْ تحتاج إلى إثبات!

بقي أنْ نشير إلى أنّ قدرا طيبا من شعر الرّدة قيل بصفته رسائل يوجهها أصحابها إلى أقوامهم، أو إلى قوادهم، أو إلى الخليفة، وكان ذلك بسبب اتساع رقعة القتال، وانتقال المقاتلين المستمر، والبعد عن مركز القيادة. وكان أصحاب تلك الرسائل الشعرية يعلنون فيها عن ثباتهم[117]، أو يصورون أحوالهم[118]، أو يعبرون عن عتاب[119]، أو سخط واحتجاج[120].

---

[115] – شوقي ضيف. *الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور*.(مصر: دار المعارف، ط2، 1977) 34.

[116] – انظر شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: 304، وما بعدها.

[117] – انظر ص 201، و ص 250

[118] – انظر السابق: 249. وانظر أبياتا أرسلها رجل من عبد القيس إلى الصدّيق(ر) في كتاب الرّدة:86.

[119] – انظر السابق: 76.

[120] – السابق: 112.

خاتمة:

نخلص من خلال قراءة شعر الرّدة الذي بين أيدينا إلى أن مصطلح "الرّدة" بمعنى الارتداد عن الإسلام، والتنكر لمبادئه وفروضه، ليس دقيقا، ولذلك فهو بحاجة إلى إعادة نظر. فالمرتدون لم يكفروا، جميعا، بالدين، كما يصورهم بعض المؤرخين القدماء، وكما يصورهم بعض الدارسين المعاصرين أيضاً[121]، ولكنهم كانوا معترضين على تولي قريش أمورهم، لأنهم نظروا إلى الأمر من خلال عصبيتهم القبلية الضيّقة، فلم يكن من السهل عليهم أن يتقبلوا الخضوع لـ"قبيلة" أخرى، ولاسيما أنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم تكن فكرة "الدولة الإسلامية" قد اتضحت في أذهانهم ليعلموا أن انضواءهم تحت رايتها يحقق لهم من العزّة والمنعة أكثر مما تحققه لهم قبائلهم، وأن الصدقة التي يقدمونها تعود عليهم بالخير في الدنيا والآخرة، وليست "إتاوة" تؤخذ "قسرا" وتدل على "عبودية" على حدّ قول بعض شعرائهم[122].

ومن خلال العصبية القبلية، أيضا، نظر المرتدون إلى الخليفة على أنه مجرّد "رجل من تيم" أو من "قريش"، في أحسن الأحول، ناسين، أو متناسين، قربه من الرسول(ص) ودوره العظيم في نصرة الدعوة الإسلامية، فبدا لهم أنهم أحقّ بهذا الأمر منه– ولاسيما أن الرسول(ص) لم يستخلفه[123]– لأنهم ينتمون إلى أقوام أعظم من تيم!! وقبائل ليست أقل شأنا من قريش!!

وشعر الرّدة لا يبيّن "أهدافا مادية صرفة" سعى إليها المرتدون، كما يشير أحد الدارسين[124]، بل يبيّن سوء فهم أدت إليه عوامل مختلفة؛ منها قرب عهد المرتدين بالجاهلية وقيمها وأخلاقها، ومنها ضعف إيمان المرتدين بالإسلام. بالإضافة إلى أن بعض من أعلنوا الإسلام، ولاسيما من الأعراب، كانوا منافقين، ورأى هؤلاء في انتقال الرسول(ص) نهاية لدعوته، فأظهروا ما كانوا يبطنون من كفر، وسعوا إلى الرجوع إلى حياتهم الجاهلية الأولى.

هكذا تتجلى الرّدة في شعر شعرائها، وقد لا يكون الحكم دقيقا عندما ننظر إلى الرّدة–وهي حدث تاريخي– من خلال معطيات فنيّة كالشعر، ولكن من الحق أن الشعر يعدّ وثيقة تاريخية هامة، ولاسيما بالنسبة إلى زمن كان أهله يعتمدون، في المقام الأول، على الذاكرة في حفظ ما يهمهم من أحداث، ومن فنون القول، ولذلك فهو يسهم في الكشف عن بعض جوانب تاريخية ربما غفل عنها المؤرخون، أو في إضاءة جوانب اختلفت أقوالهم فيها.

وشعر الرّدة قليل، وقد ذكرت من قبل أن للضياع، والتضييع، أثرا في ذلك، ولكن ينبغي ألا نحمّل الضياع، والتضييع، وحدهما مسؤولية قلة ما احتفظت به المصادر من شعر، إذ إنّ أحداث الرّدة لم تكن بتلك الشدّة التي تصورها روايات سيف بن عمر الضبي، ولم تكن بتلك الكثافة والنشاط، ولم تستغرق زمنا يتيح للشعراء التأمل فيما جرى، والانفعال به، والتعبير عنه بالشعر، ففي أقل من عام قمعت الحركات كلها، وتوجّهت الجهود نحو الفتوح، وانشغل الناس بها، وطربوا لانتصاراتهم المتتابعة فيها، فاجتهدوا في التعبير عن بطولاتهم وانتصاراتهم، واهتموا بحفظ ما قالوه، ما

---

[121] – انظر محمد أحمد باشميل(حروب الرّدة):292، و287.

[122] – قال رجل من بني عمّ الأشعث: إذا نحنُ أعطَيْنا المُصَدَّقَ سُؤلَهُ فنحنُ لهُ فيما يريدُ عَبيدُ

انظر كتاب الفتوح لابن الأعثم الكوفي. تحقيق علي شيري (بيروت: دار الأضواء، ط1، 1991) 48/1.

وقال حارثة بن سراقة بن معديكرب: أيأخُذُها قسراً ولاعهدَ عنـدَهُ يُمَلّكُهُ فينا وفيكم عُرَى الأمرِ؟

انظر مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر–اختصار ابن منظور– تحقيق عبد الحميد مراد(بيروت: دار الفكر، ط1، 1984) 409/4.

[123] – انظر قول الحارث بن معاوية في كتاب الفتوح لابن الأعثم: 49/1.

[124] – محمد أحمد باشميل، حروب الردة: 289

وسعهم ذلك، وكان من شأن ذلك كله أنْ يشغلهم عما قيل في الرّدة، ولاسيما أنها كانت حدثا أليما، نسيانه خير من تذكّره.

ومما يلاحظ أن شعر الرّدة لا يصور معارك كبيرة، أو شديدة، وليس فيه – إلا نادرا– تصوير لبطولات فردية، أو جماعية، تخص هذا الطرف أو ذاك. وهذه ملاحظة تدعو إلى التريث في قبول ما ذهب إليه بعض الدارسين من أن "الكثرة الساحقة من العناصر القتالية الممتازة قد كفرت ونجحت في انقلاباتها"[125]!

كما أن قائلي هذا الشعر لم يهتموا كثيرا بذكر الأسباب التي دفعتهم إلى القتال. وإذا كان بعض المرتدين قد عبروا عن اعتراضهم على خلافة قريش، وعلى تسليمها الصدقات، فإن الشعراء المسلمين لم يزيدوا على إعلان ولائهم للخليفة، وطاعتهم له، واستعدادهم لمواجهة المرتدين. وكان من المفترض أن يقيموا الأدلة الشرعية على وجوب قتال المرتدين، وأن يبيّنوا–بعد ذلك– أنّ هذا القتال إنما هو جهاد في سبيل نصرة الإسلام والذود عن حياضه، وأن يذكروا أن الجنة مثوى شهدائهم، وأن النار مثوى القتلى من المرتدين.

ومع ذلك كله، يبقى شعر الرّدة جزءا هاما من التراث الشعري لمرحلة من أهم مراحل التاريخ العربي، اتفق الباحثون على تسميتها بـ"صدر الإسلام". هو هام لكونه "فنّاً" تسهم دراسته في الكشف عن ملامح الفنّ الشعري العربي الأصيل، وهو يمرّ في مرحلة قلقة من مراحل نموّه وتطوّره، وهام لأنه نتاج لإنسان تلك المرحلة وهو يواجه مشاقّ الانتقال من مجتمع القبيلة الضيق الذي ألفه، إلى مجتمع الدولة الإسلامية الرحب، الذي تحكمه القيم الروحية السامية الجديدة، ولذلك فقد يكون أكثر من وثيقة تاريخية لتلك المرحلة.

[125] – انظر محمد أحمد باشميل، حروب الرّدة: 284.

المراجع:

- **القرآن الكريم.**

1- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم. *أسد الغابة في معرفة الصحابة*. بيروت: دار إحياء التراث العربي، بلا تاريخ.

2- باشميل، محمد أحمد. *حروب الرّدة*. بيروت: دار الفكر، ط1، 1979.

3- البلاذري، أحمد بن يحيى. *فتوح البلدان*. بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000.

4- بيضون، إبراهيم. *ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري*. بيروت: دار النهضة العربية، 1979.

5- الجاحظ، عمرو بن بحر. *العثمانية*. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة: دار الكتاب العربي، 1955.

6- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد. *جمهرة أنساب العرب*. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة: دار المعارف، ط3، 1971.

7- حسن إبراهيم حسن. *تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1964.

8- الحموي، ياقوت بن عبد الله. *معجم البلدان*. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1984.

9 - الدوري، عبد العزيز. *مقدمة في تاريخ صدر الإسلام*. بيروت، 1960.

10- الديار بكري، حسين بن محمد. *تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس*. بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، طبعة حجرية، بلا تاريخ.

11- الزركلي، خير الدين. *معجم الأعلام*. بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1980.

12- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم. *الملل والنحل*. القاهرة: مكتبة الأنجلومصرية، بلا تاريخ.

13- شوفاني، إلياس. *حروب الرّدة*. بيروت: دار الكنوز الأدبية، ط1، 1995.

14- ضيف، شوقي. *الشعر وطوابعه على مرّ العصور*. مصر: دار المعارف، ط2، 1977.

15- الطبري، محمد بن جرير. *تاريخ الأمم والملوك*. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: ط2، 1976.

16- ابن عبد البرّ، يوسف بن عبد الله القرطبي. *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*. تحقيق وتعليق على محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود. بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1995.

17- العتوم، علي. *ديوان الرّدة*. عمان: مكتبة الرسالة الحديثة، ط1، 1987.

18- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. *الإصابة في تمييز الصحابة*. بيروت: دار صادر، بلا تاريخ، وطبعة مطبعة السعادة بمصر: ط1، 1328.

19- القاضي، النعمان عبد المتعال. *شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام*. مصر: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965.

20- الكرماني، محمد بن يوسف. *الفرق الإسلامية، ذيل كتاب شرح المواقف*. تحقيق سليمة عبد الرسول. بغداد: مطبعة الإرشاد، 1973

21- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر، بلا تاريخ.

22- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. *السيرة النبوية*. قراءة وضبط وشرح د. نبيل طريفي. بيروت: دار صادر، ط1، 2003.

23- الواقدي، محمد بن عمر بن واقد. *كتاب الرّدة ونبذة من فتوح العراق*. اعتنى بتهذيبه محمد حميد الله. باريس: المؤسسة العالمية للنشر، ط1، 1989.

24- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر. *تاريخ اليعقوبي*. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1980.